الغريزة

للدكتور فضل أبو بكر

الغريزة عبارة عن ميل خاص ونزعة مجبولة فى نفس الكائنات الحية منذ ظهورها إلى عالم الحس والوجود . وقد تكون نتيجة المعرفة وليدة التجارب حيناً ، كما قد تتجرد عن كل ذلك فى معظم الأحيان ، وأن ذلك الميل وتلك النزعة تمليهما ضرورة الحياة والكفاح من أجلها .

ذلك الميل وتلك النزعة يتجليان فى صورة نشاط تبدو بواكره فى مستهل حياة الكائن ، ويكون أشبه بالنشاط الفسيولوجى كما يظنه الإنسان لأول وهلة نتيجة لعقل أو روية . وعمل الغريزة يكون أوضح فى الحيوانات ولا سيما الدنيا منها مثل الحشرات مثلا .

أما موضوع الغريزة ، فهو من المسائل التى كثر حولها الجدل وتضاربت الآراء إلى حد بعيد ، إذ يرى البعض فيها عملا آلياً ميكانيكياً كعمل الساعة ، أو فسيولوجياً بحتاً غير إرادى كعملية الهضم ، وفريق آخر يعتبرها ناتجة من معرفة وفهم ، أو على الأقل فيها مسحة من الذكاء .

كذلك هم يتساءلون مختلفين عن نشأتها ووجودها فى الكائن : يظن البعض أنها تنشأ كاملة من أول وهلة ومن غير حاجة إلى صقل وتهذيب . ويقول البعض إنها تولد ناقصة بدائية ثم تنمو وتتطور بنمو الكائن . ويقف فريق آخر موقفاً وسطاً بين هذا وذاك ويعتقد بأن بعض الغرائز — وهى الموروثة — تولد كاملة من غير حاجة إلى تطور ، وبعضها — وهى المكتسبة — تكون ناقصة ثم وتكتمل شيئاً فشيئاً بمرور الزمن .

يقف الإنسان حائراً إزاء هذه الآراء المتضاربة المتنافرة ، وسبب هذا التنافر — كما اتضح أخيراً للباحثين — هو أن بعضهم يخلط بين الغرائز وبين بعض المظاهر الحيوية الفسيولوجية لا يوجد بينها من تشابه يشتد فى بعض الأحيان . وأول من ألمع إلى هذا اللبس هو العالم السيكولوجى البلجيكى « لوى فرلين » وفرق بين الغرائز والظاهرات الفسيولوجية ، وأن هذه الظاهرات وإن كانت فى بعض الأحيان تحتم وجود الغرائز وتدعو لخلقها إلا أن هنالك عوامل أخرى غير العوامل الفسيولوجية كما سيتضح لنا جلياً فيما يلى :

خواص الغريزة ومميزاتها :

يقول البعض إن الغريزة لها صفة « نوعية » بمعنى أن كل الحيوانات التى تنتمى إلى نوع واحد تشترك فى الغرائز ، ويكون عمل الغريزة فيها بطريقة واحدة ، والأدلة على ذلك كثيرة نذكر منها أن لحشرة الزنبور نحو ألف من الأنواع ، وكل نوع له طريقته الخاصة فى صيد الفريسة التى يقتات منها ، فالنوع المسمى بالـ Cerceris tuberculata يفترس حشرة من ذوات الأربعة أجنحة ، والتى تعيش على البقول الجسافة والحبوب واسمها Charancon هذا النوع من الزنابير — وكل الأفراد التى تنتمى إلى نوعه — له طريقة خاصة فيما يتعلق بالصيد ، إذ يلسعها ويحقنها بمادة يفرزها ، ومفعول هذه المادة هو شل حركة الفريسة فقط دون موتها ، ثم ينقلها إلى مأواه ويبيض عليها ، حتى إذا ما فقست البويضات ، وجد صغار الزنابير طعاماً جاهزاً من دون سعى ولا مشقة . ونوع آخر من أنواع الزنابير هو الـ Bembex يعيش دائماً على حشرات الذباب ، وضرب آخر منها هو الـ Compile لا يأكل غير حشرات العنكبوت ، إلى غير ذلك من الأنواع الكثيرة ولكل نوع طريقة خاصة فى اقتناص الفريسة ونوع الفريسة .

كذلك لكل نوع طريقة خاصة فيما يتعلق بالسكن ، فمنها ما يحفر جحره فى هامات الصخور ، أو على أديم الأرض ، أو فوق الجدر والحيطان ، أو جذوع الأشجار ؛ ومنها ما لا يحفر ولا يشق ، ولكنه يعيش فى مخابئ طبيعية بين لحاء عيدان الأشجار ، أو داخل ما تجوف من الأصداف والمحار .

غير أن نوعية الغريزة لا يمكن أن نقبلها إلا بشئ من التحفظ ، إذ هى ليست بنوعية مطلقة ، ولكنها نسبية لحد ما ، تعتريها بعض الشواذ ، كما أشار إلى ذلك « فرلين » بعد تجاربه التى أجراها فى الأناث من طير الكنارى Canari والتى تولد فى أقفاص الأسر ، وجد أن بعض تلك الأناث لا تكون عندها غريزة بناء العش كاملة ، إذ تبنى عشها بطريقة مشوهة ناقصة ، وقد تحقق إخفاقاً تاماً ، بينما البعض الآخر — وهو من نفس النوع — يعشش بطريقة عادية تامة . كذلك يروى العالم السيكولوجى « أشيل بوران » فى كتابه « سيكولوجية الحيوانات المتوحشة » بأن لأشبال الأسود وصغار الفهود عادات وغرائز

ليست ثابتة كما هو المتوقع .

هذا ، ونجد العكس في بعض الحيوانات والحشرات بمعنى أنه رغماً من انتمائها إلى أنواع مختلفة ، تتحد في بعض الغرائز أحياناً كمادة تصنع الموت ، وهي حيلة تلجأ إليها بعض الحيوانات والحشرات بقصد الدفاع أو الهجوم . مثال ذلك حشرة من ذوات الأربعة أجنحة حمراء مبرقشة بنقط سوداء ، وهي أشبه شكلا بحشرة « الجمران » ، وهذه الحشرة اسمها Coccinelle وإذا ما أسرها الإنسان ووضعها على كفه مثلا أو فوق سطح مستو ، فإنها تستلقي على ظهرها وتقبض أرجلها ولا تبدي أي حركة أو علامة للحياة ، وإذا ما تركتها وشأنها استعادت حيويتها وأطلقت أنفاسها ثم ولت هاربة طلباً للنجاة . وهذه طريقة دفاعية مدهشة حقاً قد يحسدها عليها الإنسان في بعض الأحيان كما أن هنالك بعض الحيوانات من ذوات الثدي أشبه بالفار الصغير واسمه Raton laveur ، لأنه لا يأكل شيئاً إلا إذا غمسه وغسله في الماء ، ويسميه الأنجلوسكسون بال Racoon هذا النوع من ذوات الثدي يلجأ إلى نفس الحيلة ويشترك مع الحشرة المذكورة في هذه الغريزة ، ولكنه يستعملها طريقة للهجوم على صغار الطيور

نشأة الغريزة :

يقول عالم الحشرات الفرنسي « فابر » بأن الغريزة تولد كاملة منذ وجود الحيوان وعليه فهي ليست في حاجة إلى صقل وتهذيب مستشهداً بما أجراه من تجارب في مجموعة من حشرات الفراش والزنابير ؛ غير أن الكثير من العلماء تذكر منهم « بول مارشال » لا يرى رأي « فابر » إذ يقول « مارشال » بأن بعض أنات الزنابير وإن كانت حقيقة كما شاهد « فابر » بأنها تلسع الفريسة لسعة تشلها من غير أن تميتها ثم تتركها لصغارها لتأكل منها طعاماً شهياً يقيم الأود ويسد الرمق بعكس ما إذا كانت الإناث تميت فريستها وتتركها جثة هامدة ، إذ يكون الطعام في هذه الحالة أقل إثارة للشهية وأضعف قيمة غذائية ، كما أن هذه الغريزة عند إناث الزنابير والتي تبدو لأول وهلة وليدة عقل مدبر ؛ إلا أنه يظن أن تلك الإناث لم تصل إلى هذا الحد من الإتقان إلا بعد مرور أزمان سحيقة خلال تطورها ونشوئها .

كذلك العالم البيولوجي الإنجليزي « برد » يعتبر الغريزة ناقصة في أول نشأة الحيوان تتطور وتنمو بنموه . مثال ذلك ما نشاهده في صغار الدجاج إذ هي لا تجيد في حداثتها عملية (التنقير) اللازمة لقوتها ، فتراها تخطئ كثيراً حين تنقر الحبوب إذ لا تصل إلى هدفها إلا بعد محاولات ثم تزداد مهارة شيئاً فشيئاً خلال نموها .

ويوافق « برد » « ثرلين » ؛ إذ هو أيضاً يؤمن بتطور الغريزة ؛ إذ شاهد أن إناث بعض الطيور لا تتقن بناء الأوكار في حداثتها ولا تصل إلى حد الأجادة إلا بعد أن تبلغ من عمرها حداً يؤهلها لذلك .

غاية الغريزة وأهدافها :

إن المرمى البعيد الذي تهدف إليه الغرائز إنما هو بقاء النوع على مدى الأزمان . وتتخذ لذلك عدة وسائل : منها ملاءمة البيئة ، وهي غريزة سبق أن تكلمنا عنها في مقال سابق وتعرضنا إلى آراء « دروين » و « لامارك » و « اسبنسر » فيما يتعلق بها . ونضيف إلى ذلك أنه كلما كان الحيوان أرقى كانت ملاءمته للبيئة أوضح وأكبر . وعلى ذلك فهي عند الطيور دائماً ملاءمة البيئة في بناء أوكارها من حيث طقس المكان الذي تعيش فيه وباختلاف الفصول في ذلك المكان . أما عند الحشرات فهي أقل وضوحاً . مثال ذلك ما شاهده « ثرلين » في بعض أنواع الحشرات التي تبني بيوتها من الطين أو الصلصال ، يقول « فرلين » إذا أدخل بعض التعديلات داخل تلك البيوت فإن بعض الحشرات لا تعيره انتباهاً وتستمر في حياتها كما لو لم يحدث شيء ؛ ولكن البعض الآخر — وهو من نفس النوع — لا يحلو له العيش ولا يطيب له المقام في هذه البيئة الجديدة فيعيد هندسة ويقدم ما تقوض من أركانه مهما طال أمد التجربة ومهما كلفه من مشقة وعناء .

قلنا إن المرمى البعيد للغريزة هو بقاء النوع فهي في خدمة النوع أكثر مما هي في خدمة الفرد ، ولو تراءى العكس في بعض الأحيان . والأدلة على ذلك كثيرة نذكر منها ما شاهده « فابر » و « فرلين » في هذه الحالة إذ تبين لهما أن إناث الدبور عند ما تدخر لصغارها الحشرات التي تشلها وقبل أن تنفق

البويضات وتظهر الصغار إلى عالم الحس والوجود فى هذه الفترة شاهد أن الإناث قد تجوع وتشتد بها غائلة الجوع إذ يندر الصيد أحياناً ويتعذر الطعام . وقد شاهدا أيضاً أن تلك الإناث تلف وتدور حول الفريسة المشلولة وتتلمسها فى حالة عصبية . ولم يشاهد قط منها أن التهمت ما نذرته لبنيها من طعام ، فتؤثر بنيها على نفسها رغماً عما بها من خصاصة وحرمان .

غير أن « أشيل بوران » فى كتابه سيكولوجية الحيوانات المتوحشة يقول أن هذه القاعدة قد ينتابها بعض الشذوذ أحياناً ، إذ شاهد بعد تجارب أجراها فى بعض الحيوانات المتوحشة المأسورة لهذا القصد ، شاهد بعض أناث النمور والأسود والدببة تتخلى عن صغارها يوم ولادتها وتنفر منها نفوراً تاماً ، وسمى هذه الظاهرة الشاذة « بالغريزة الضالة » وقد عزاها غيره إلى حالة مرضية تنتاب تلك الأناث . وقد يكون للأسر دخل فى ذلك وشبهوها بما يحدث للمرأة النفساء أحياناً مما يسمى « جنون الولادة » وهو نوع من الذهان والهلوسية الحسية والشعور بالاضطهاد يقودها إلى التخلى عن مولودها بل وقتله إذا اشتدت وطأة الداء ولم تتخذ الاحتياطات اللازمة بإبعاده عنها .

وهنالك ظاهرة أخرى غريبة تشبه من حيث الشذوذ — الغريزة الضالة وتسمى « بغريزة الروتين » بمعنى أنها لا ترمى — كغيرها من الغرائز — إلى هدف يستفيد منه الحيوان وهو ما نشاهده عند الكثير من الكلاب وهى عادة دفن الأطعمة كاللحوم أو العظام أو غيرها بعد أن تحفر له حفرة بمخالبها الأمامية ثم توارية التراب . وقد تلجأ أو لا تلجأ إليه بعد ذلك مع أن بعض الكلاب التى تفعل مثل هذا قد تكون كلابا مدللة من أصحابها ولم تعرض إلى الجوع يوماً ما ! !

ولكن « روسل » يقول إن الكلاب إنما تخبىء ما زاد على حاجتها وتدخره سهما توفرت الأطعمة ، وفى هذا شىء من بعد النظر بلا شك ، وهو ما يطابق المثل العربى الذى يقول : « أن ترد الماء بماء أكيس » .

قد يكون رأى « روسل » مقبولا لحد ما ، ولكن هنالك فريقاً من الكلاب يدفن أشياء غير قابلة للأكل مثل الحجارة ، أو قطع الأخشاب ، أو الملابس ، وهو يدفنها بنفس الاهتمام كما لو كانت ذات فائدة غذائية . وفى هذا المثل الأخير تتضح غريزة الروتين بصورة أوضح . ثم إن الكلاب فى دفنها الأشياء من غذائية أو غير غذائية تختلف ، فتارة تلجأ إلى مكان بعيد وتختفى عن الأنظار ، وتارة تدفن ما تريد دفنه بمرأى ومسمع عن الناس بغض النظر عما إذا كان المدفون مما يؤكل أو مما لا يؤكل ! !

أسباب الغريزة وروافعها :

إن للغريزة أسباباً داخلية وأخرى خارجية مؤثرة على الحيوان . ويقول « رابو » إن عمل الغريزة يتوقف على استمالات خارجية ومؤثرات حسية ، فأناث بعض الحيوانات حين تهيأ للحبل وتكون فى حالة فسيولوجية قابلة له تبعث منها روائح خاصة من شأنها جلب الذكور وإغرائها جنسياً ، وحاسة الشم عند تلك الحيوانات تلعب دوراً أهم من غيره فيما يتعلق بالناحية الجنسية ، والدليل على ذلك ما قام به « فابر » من تجارب . وضع « فابر » أنثى من أنواع الفراش هو مايسمى بالـ Oasteropacha guercus وضعها داخل إناء مقفل الجوانب عدا نافذتين صغيرتين تسمحان للهواء بالمرور ووضع الإناء وما يحوى فى مكان منعزل ، فوجد بعد مضى ثلاثة أيام نحو ستين من ذكور الفراش تلتف حول الإناء لما ينبعث منه من روائح جلبت ذلك الجيش من الذكور ، ثم وضع بعد ذلك نفس الأنثى فى إناء من زجاج يشف عما بداخل الإناء ، ولكنه محكم القفل لا يسمح بمرور الهواء ، ثم تركه فى مكان منعزل لمدة ثلاثة أيام ، فلم ير غير اثنين من الذكور ، وقد أجرى العمليتين عدة مرات ، وكانت النتائج دائماً واحدة . لما قدى بعض الحشرات مثل العنكبوت ، فإن حاسة السمع تلعب دوراً أهم من غيره من بقية الحواس ، إذ تعتمد عليها فى اصطياد الفريسة .

من هذا يحق لنا أن نقارن عمل الغريزة بظاهرة الـ Tropisme وهى عبارة عن قوة طبيعية تؤثر على الكائن وتجذبه إليها فتكون إيجابية ، أو تصده عنها وتنفيه فتكون فى هذه الحالة سلبية مثل ذلك « الجذب الأرضى » ، إذ يكون إيجابياً فى النبات بالنسبة للأصول والعروق ، إذ هى تتجه نحو الأرض وتتدفن فى جوفها ، وسلبياً بالنسبة للسيقان والجذوع والأوراق ، إذ تتجه اتجاهاً معاكساً وتنفر من جوف الأرض ، وكذلك ظاهرة « الجذب

التنوئى » تكون فى النبات عكس ما يحدث بالنسبة إلى ظاهرة الجذب الأرضى .

كذلك نشاهد معلول تلك الظاهرة ، أى الـ Topisme فى بعض أنواع الحشرات من ذوات الأجنحة النصفية تعيش على عصير النباتات واسمها Puceron allé ، فإذا وضعتها فى مكان فهى تتجه دائماً نحو النور . وكذلك نوع من أنواع الذباب اسمه Drosophile تجذبها الروائح الأثيرية والحمضية المنبعثة من الفواكه المختمرة ، وهذا ما يسمونه بالجذب الكيمائى .

وقد حاول العالم الإنجليزى « لوب » تعليل مثل هذه الظاهرات ، ولكنه علها تعليلاً ميكانيكياً خالياً من الإرادة ، بل ومن مظاهر الحياة ، وزعم بأن كل أنواع الـ Tropisme ما هى إلا إحدى مظاهر الجاذبية العامة خاضعة لها ، وهى كذلك أشبه بالجذب المغناطيسى .

لقيت آراء « لوب » شيئاً من الرواج حيناً ولكنها هوجمت وتبين خطأها . خذ مثلا حشرة الشة فهى تنجذب نحو النور ولكن حين يحين موعد البيض تبحث عن مكان مظلم لا يتطرق إليه بصيص من نور . والأمثال كثيرة فى هذا الصدد مما دعا الباحثين إلى أن يعتقدوا بأن عمل الـ Topisme ليس عملاً ميكانيكيا كما يظن « لوب » وأن الغريزة ليست إلا نوعاً منه كما كان يعتقد .

كذلك توجد عند الحيوانات غريزة التوجيه تعتمد فيها على الذاكرة وعلى حاسة البصر أكثر من سواها من الحواس ؛ فإذا فصلت النحل من خلاياه وباعدت بينه وبينها نحواً كثر من أربعة كيلو مترات ثم أطلقت سراحه بعد ذلك فإنه يرجع بسهولة إلى خلاياه من غير ما يضل طريقه إليها ، كما تتفاوت درجة غريزة التوجيه لدى الحيوانات .

الغريزة والعقل :

رأينا مما تقدم أن الحيوانات حتى الدنيا منها مثل الحشرات كالنحل والزنبور والطيور تقوم بأعمال يظنها الإنسان لأول وهلة ناتجة عن عقل مفكر مدبر مما دعا إلى الخلط بين العقل والغريزة فى كثير من الأحيان . فبرجسون يقول إن العقل والغريزة يتشابهان فى كثير من الأحيان ويكمل بعضها عمل البعض الآخر ولكنهما يختلفان فى كثير من الأوجه ، ويعتقد بأن الغريزة أميل إلى الآلية وإن كانت لا تخلو من مهارة وشىء من الإلهام .

فالغريزة تتوغل داخل الأشياء ، بينما العقل يطوقها من الخارج ويعلم ما يربطها بعضها البعض ، فهو يبتكر ويحلل ولكنه مع ذلك يفتقر إلى موهبة فلسفية وفنية لفهم الحياة على وجهها الصحيح .

كذلك كان يظن « أسبنسر » « ودانتك » بأن الغريزة عبارة عن صيغة فسيولوجية ورثها الفرد من النوع الذى ينتمى إليه ؛ ولكن المتفق عليه الآن هو أن الغرائز عبارة عن ميول سيكولوجية وفسيولوجية بعضها موروث وآخر مكتسب ، تولد ضيغة مترددة ثم تتهذب وتتصقل بنمو الحيوان .

ولنذكر الآن بعض الغرائز عند الإنسان :

غريزة التملك :

وهى تظهر جلياً عند الطفل إذ يحاول أن يمتلك كل ما تمتد إليه يده أو يقع تحت بصره . وسبب ذلك تنازع البقاء وطلب الخلود ؛ وهذه الغريزة تشمل عدة غرائز أخرى مثل غريزة الصيد ؛ فإذا أتيحت للطفل الفرصة أن يقتحم عشاً للطيور أو قفصاً للدجاج فإنه يأسر صغارها ويستولى على بيضها ، كما يحلو له أن يتصيد الحشرات مثل الجراد والفراش وتبدو عليه سيماء النشوة ؛ وقد يكون ذلك بدافع من غريزة التملك أو يكون ذلك نتيجة لبقايا وآثار وراثية كامنة فى نفسه وفيما كان الصيد ضرورة حيوية للانسان الأول يقتات منها .

غريزة الحروب :

كثيراً ما نشاهد الأطفال من مختلف الأجناس والبيئات مولعين بتنظيم صفوفهم فى هيئة جنود محاربة ، ويشنون الحرب بعضهم على بعض متسلحين بالطوب والحجارة أو العصى الرفيعة فى حرب هجومية قد يكون الدافع لها غريزة التملك إذا كان هنالك من الأشياء ما يتنازعون من أجله ويود كل فريق أن يكون له دون غيره ، أو بدافع حب السيطرة ، أو تكون حرباً دفاعية بعوامل من غريزة حب البقاء .

غير أن بعض السيكولوجيين يرى فى حروب الأطفال هذه عاملا جنسياً ؛ إذ أن الطفل يتهيأ بهذه الحروب الصغيرة إلى حرب